الرواية والتعددية الثقافية في ضوء الهوية الأفريقية

Fiction and multuralism in the light of African identity

د / عزوز على اسماعيل سالم

مدرس الأدب والنقد والبلاغة

بمعهد القاهرة العالي للغات والترجمة الفورية بالقاهرة

Cairo Higher Institute of Languages and Interpretation in Cairo

المستخلص:

يتناول هذا البحث المعنون بـ "الرواية والتعددية الثقافية في ضوء الهوية الأفريقية" بعض الأعمال الروائية التي تتناول الهوية الأفريقية وفق التعددية الثقافية، فقد عاشت القارة الأفريقية ردحا طويلاً من الزمان وهي تحت وطأة الاستعمار، فهناك مفاهيم تغيرت وارتبطت بالآخر، فضلاً عن تعدد الثقافات المرتبطة بتعدد اللغات أو المرتبطة بالمستويات المختلفة للحياة في القارة الأفريقية، فهناك ثقافة القبيلة، وثقافة صاحب الأرض، وثقافة القادم إليها من أوروبا غازياً، فتأثرت البلاد بهذا القادم وأصبح هناك اختلاط بين القادم وأصحاب الأرض، فمنهم من تأثر بالمستعمر، ومنهم من ظل محتفظاً بعاداته وتقاليده وفق ثقافته وثقافة بلده، وهناك من تأثر وهاجر إلى هناك، فالتعدد الثقافي ظهر في الروايات وعند الأدباء المنادين بحتمية الارتباط بالهوية الأفريقية حتى ولو هناك تعدد ثقافي، ومنهم سوينكا في عدد من رواياته، ومنهم تشنوا أتشيبي، وأيضاً الكاتب السنغالي دافيد ديوب، وفي النهاية رأينا أن العولمة أصبحت عقبة في طريق التعدد الثقافي، فالتعدد الثقافي يشترط وجود قوميات مختلفة ولغات مختلفة تعمل على قبول بعضها البعض كما هو موجود في أوروبا.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التعددية الثقافية، الهوية الافريقية

Abstract

This research entitled "Fiction and multuralism in the light of African identity" deals with some fictional works that deal with African identity according to cultural pluralism. The African continent has lived for a long period of time and is under the weight of colonialism. Languages or associated with the different levels of life on the African continent, there is the culture of the tribe, the culture of the landowner, and the culture of the one coming to it from Europe as an invader, so the country was affected by this coming and there became a mixing between the next and the owners of the land, Some of them were influenced by the colonialists, and some of them kept their customs and traditions according to their own culture and the culture of their country, and there were those who were affected and immigrated there, as multiculturalism appeared in the novels and among writers calling for the inevitability of the link with the African identity, and among them Soyinka in a number of his novels, and some of them Chenona Achebe, and also the Senegalese writer David Diop, and in the end we saw that globalization has become an obstacle in the way of multiculturalism. Multiculturalism requires the existence of different nationalities and different languages working to accept each other as it exists in Europe.

تمهيد

التعدد الثقافي يعتبر نتيجة حتمية لفكرة التعددية اللغوية، الأمر الذي ينتج عنه هوية أو هويات مختلفة تنتمي إلى لغة من تلك اللغات، ويكون ارتباط تلك الهويات بالثقافة الخاصة لكل قوم من الأُقوام أو شعب من الشعوب، وفي الأساس تعود إلى اللغة التي خرجت منها أو ارتبطت بها، أو حتى في العادات والتقاليد، كما في الملبس والمأكل والمشرب فكلها ثقافات، وهو الأمر الذي نلمحه بجلاء في القارة الأفريقية، فقد تعددت الثقافات في البلاد المختلفة حتى في البلد الواحد، وإذا كانت تلك الثقافات قد ارتبطت باللغة، فإن أفريقيا يتنازعها عدد من اللغات والتي كان للاستعمار أثر فيها مثل اللغة الفرنسية والإنجليزية وغيرهما؛ فهناك بلاد تأثرت بالفرنسية مثل الجزائر وتونس والمغرب بالإضافة إلى ارتباطها العروبي باللغة العربية في شمال القارة، وهناك بلاد تتحدث الفرنسية باعتبارها اللغة الأولى مثل الكونغو وساحل العاج والكاميرون في جنوبها وأخرى تتحدث الإنجليزية مثل نيجيريا وكينيا، بالإضافة إلى اللغة السواحلية الأفريقية. من هنا فإن التعدد الثقافي يحتاج إلى مظلة كبرى ، يعيش تحتها كثير ممن يختلفون في اللغة، وهو ما يظهر بجلاء في الدول الأوروبية وأمريكا، فهناك جنسيات عديدة وثقافات مختلفة والكل يحيا معاً في ظل سياسة قبول الآخر؛ حيث إن "المجتمعات المعاصرة تتميز بتعدد هوياتها الدينية والأخلاقية وبخصوصياتها الثقافية وبأنماط حياتها المختلفة"[1]. الأمر الذي يؤكد على عدم كفاية النظرية الليبرالية. وهو ما يستتبع معرفة الآخر ومدى ارتباط هذا الآخر بفكرة القبول، ولكن ما بالنا إذا كان هذا الآخر جاء مستعمراً للقارة الأفريقية، وهو ما يُظهر بلا أدنى شك ثقافة صاحب الأرض، الذي ظل يدافع عنها ضد الهيمنة وضد ثقافة المستعمر، بالإضافة إلى ثقافة من تأثر بالمستعمر وهجر بلاده وسافر إلى هناك، فيعيش بماضيه مع الحاضر الجديد مثلما فعل دافيد ديوب الكاتب السنغالي، الذي عاش يدافع عن أصله الأفريقي في أعماله الروائية وهو يعيش في فرنسا، ويؤكد على مدى الهيمنة الاستعمارية وهو ما رسمه في روايته المؤلمة "شقيق الروح".

بلا شك قد تتدخل العولمة بقوتها للنيل من التعدد الثقافي؛ لأنها تجهز على التخصصات الثقافية المختلفة لكل بلد من البلدان، وأيضاً تحاول إجهاض ما يعرف بالهويات المحلية، خاصة

[1] **د. الزواوي بغورة، التعدد الثقافي مفهومه ونظريته من خلال نموذج ويل كيمليكا، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، العدد 2 المجلد44 أكتوبر ديسمبر 2015 ص8**

في تلك الأوقات التي يشهد فيها العالم كله تراجعاً في التنوع الثقافي؛ لكي يرضي التنوع العالمي الذي يسعى لوأد الهويات وإعلاء شأن العالمية في ثقافات بعينها كانت لقوة بلادها الأثر في ذلك، ويعتبر ذلك من أهم سلبيات العولمة؛ "حيث لها من السلبيات ما لا يخفى لعل أبرزها هيمنة القوى الاقتصادية الكبرى على المشهد الاقتصادي والسياسي والثقافي العالمي وتهديد ثقافات هذه الدول"[1] وما يؤكد هذه الحقيقة أن هناك عشرات من اللغات تنقرض على مدار فترات طويلة، وهو ما تنبأ به علماء اللغة

البحث في التعددية الثقافية في جنوب القارة الأفريقية يتطلب قراءة الأدب الأفريقي والذي اشتغل في كثير منه على الخلاص من المستعمر الموجود في كل مكان، فقد كانت أفريقيا وما زالت مطمعاً للأوربيين، وهناك في القارة أيضاً المستعمر الداخلي أي ممن نصَّب نفسه حاكماً بالقوة الجبرية خاصة في منتصف القرن الماضي وما تلاه، وكان في جميع حالاته تابعاً للمستعمر وهويته، وكان للأدب دوره في تسليط الضوء على هذه الجزئية التي أرهقت القارة كثيراً وكان وول سوينكا اسماً بارزاً في القارة الأفريقية من المناضلين ضد الاستعمار وأول أفريقي يحصل على جائزة نوبل في الأدب وواحداً ممن دافع عن الحرية والهوية في ظل وجود ذلك المستعمر الداخلي وأيضاً الخارجي، وكانت عيناه على وجود البطل المخلص، فالمستعمر الخارجي موجود دائماً سواء أكان بقواته وعتادة أو من خلال أعوانه الموجودين في كل البلاد شرقاً وغرباً، لذلك فإننا نجد القارة الأفريقية دائماً كانت مطمعاً لهم بسبب ثرواتها التي لا يعرف حقيقتها إلا أولئك المستعمرون. دافع وول سوينكا عن الحريات والهوية الأفريقية كثيراً، ونال العذاب هو وأسرته أشكالاً عديدة؛ سواء أكان في اعتقاله أم حين ترك بلده هارباً من المتربصين به، وكانت جل أعماله تشهد له على ذلك بأنه وطني محب لأمته الأفريقية ووطنه نيجيريا تحديداً والذي كان ينشد له الفضيلة في كل الأوقات، فكتب " المفسرون" 1965و" موسم الفوضى " 1973، باحثاً عن البطل المخلص في القوة الناعمة، أي في الثقافة والأدب؛ حيث تناول في "المفسرون" المعاناة النفسية لدى الكتاب والفنانين. فضلاً عن عمله الذي يمثل سيرة ذاتية له " مات الرجل" ذلك العمل الذي يتناول اعتقاله وعذابه داخل السجون وهو ما سنقوم بمقاربته في هذا البحث، وأصبحت – من ثم – الحرية هي الهدف الذي يسعى إليه لتأكيد الهوية، تلك الحرية التي كانت في مخيلة معظم أدباء القارة الأفريقية، وأصبحت ثقافة شعبية يبحثون عنها بطرق شتى، حيث

[1] محمد نافع العشيري، مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 4 المجلد 43 أبريل يونيو 2015 الكويت. ص226

نادوا جميعاً بجلاء المستعمر، وعدم الكتابة باللغة الخاصة به والكتابة باللغة المحلية للبلاد، إيماناً منهم أن لغتهم هي لغة الوطن والتفريط في اللغة يعني التفريط في الهوية، والتفريط في الأرض، وهذا ما ألح عليه بقوة الكاتب الكيني واثينوجو حين جعل اللغة الوطنية البطل في أعماله الأدبية وكان مؤمناً أن اللغة هي أولى الخطوات الداعمة لبناء الهوية، وأثبت في تلك الأعمال أن سر تراجع القارة الأفريقية كان في الاستعمار، فقد كتب" التخلص من استعمار العقل" وقد نال صنوفاً من العذاب جراء تلك الكتابات، وتم اعتقاله وسجنه. إضافة إلى ماسبق فإن الكاتب النيجيري تشنوا أتشيبي هو الآخر كان باحثاً عن المخلص لبناء هوية جديدة تعتمد الوطنية طريقاً لها واللغة المحلية أمًّا لها كما هو الحال في رائعته " الأشياء تتداعى " والتي ترجمت إلى اللغة العربية. في النهاية لا بد وأن نعلم أن الفضل في بداية معرفة الأدب الأفريقي يعود إلى الألماني أوجيست سيدل الذي جمع مختارات عظيمة من الأدب الأفريقي والحكايات الشعبية ودونها في كتابه " قصص الأفريقيين وحكاياتهم "؛ حيث كان الأدب الأفريقي كباقي الآداب عاش ردحاً من الزمان تتناقله الألسن والشفاه، ولم يهتم الاستعمار كثيراً به لأنه لا يمثل على الأقل لغته ولا ثقافته، فضلاً عن أن الأفارقة كانوا يبحثون عما يقيم الحياة من مأكل ومشرب رغم ثرواتهم الطائلة، وكانت القاهرة بعد ذلك هي الطريق والمعبر المؤدي إلى الانفتاح على اللغة العربية حيث جاء مصر منهم الكثيرون وأبدعوا ولا ننسى الشاعر برايتن بريتنباخ الذي كان مهموماً بالقضية الفلسطينية باعتبارها قضية إنسانية فأحبه الكثيرون من العالم العربي. لا مناص – إذاً– من الاقتراب من تلك الأعمال الروائية لتفسيرها ودراستها ومعرفة شعريتها على مستوى الإبداع فيها هنا وهناك، وفق التعددية الثقافية للبلاد.فالتعدد الثقافي "يعتبر محاولة لتعميق قيمتي الحرية والمساواة على مستوى الثقافة، وأن هذه العملية تندرج في سياق فهم جديد وواسع للتسامح والعدل، ولقيمة المساواة بشكل خاص. لماذا؟ لأن مجتمعاً متعدد الثقافات يعد مجتمعاً شرعياً عندما يقوي المساواة بين مختلف أفراده الذين يتميزون بثقافاتهم وتقاليدهم وقيمهمخ المتعددة ، وذلك بواسطة الحوار وروح التسامح"[1]. والحرية والمساواة بكافة أشكالهما سعى إليها الكتاب والروائيون الأفارقة.

ولا بد أن نقر بحقيقة وهي أن الإرهاصات الأولى للرواية الأفريقية قد كتبت باللغات المحلية على الرغم أن الرواية بشكلها الحالي لم تعرف في أفريقيا إلا بعد وصول الأوروبيين

[1] الزواوي بغورة، التعدد الثقافي، مفهومه ونظريته، مرجع سابق ص9

إليها، ويعود ذلك إلى التبشير، فقد قام بعض المبشرين بتدوين تلك اللغات واستخدموها لأغراض دينية، الأمر الذي جعل التعليم ينتشر على هذا الشكل جنباً إلى جنب مع الدين المرتبط بتلك اللغات المحلية، مثل لغة الزولو في جنوب القارة ولغة التونجا في زامبيا، ولغة الشونا في زيمبابوي، وغيرها من اللغات، وهذا الأمر يحمد للقارة الأفريقية وخاصة الجنوب منها أنهم دونوا أعمالهم الأدبية في البدء بلغاتهم المحلية، حتى ولو كانت قصصاً وحكايات ارتبطت بالخرافات وقصص الكهوف، وقد كان للاستعمار دور كبير في نشر الأدب بلغات أخرى مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وكانت أول رواية كتبت باللغة الفرنسية هي رواية "إرادات مالك الثلاث" للكاتب السنغالي أحمدو مباتيه دياني، وتوالت الروايات التي كتبت باللغة الفرنسية لبعض الذين سافروا ولكن هناك من لم يبتعد عن قيم بلاده وهويته على الرغم من قسوة الحياة في أوربا مثل ما حدث مع عثمان سوسيه وكتاباته عن الزنوج وما حدث لهم من امتهان وعبودية من قبل البيض فكتب رواية عنوانها "كريم" وأخرى عنوانها "سراب باريس". وعلى الرغم من أن سوسيه قد تحدث عن الحضارة الفرنسية وبلاد النور وقصة العشق والحب التي عاشها بطله، وأنه قد تعرض لإهانة حين صافحه أحد الرجال البيض فذهب مباشرة لغسل يديه، خوفاً من أن تلوثه اليد السوداء إلا أنه في رواية أخرى حاول أن يعود إلى الأصل إلى هويته الأصلية وهي الهوية الأفريقية.

هذه الدراسة تتطلب استخدام المنهجين الاجتماعي والنفسي، فالمنهج الاجتماعي هو القادر على تفسير تلك الظواهر الاجتماعية والتعدد الثقافي في أفريقيا مع التطبيق على بعض البلدان، والمنهج النفسي يساعدنا كثيراً في تحليل شخصية الكاتب من خلال كتاباته ومن خلال أبطاله، وما يمور بداخله من آلام كان لها أثرها النفسي عليه، وأجبرته على الكتابة أي أن الألم كان باعثاً على الكتابة مثل ما فعل طه حسين في كتاباته أيضاً مع الاختلاف في بعض الأمور، وهو ما رأيناه في هذه الأعمال المختارة وفق التعددية الثقافية من بلدان أفريقية مختلفة، ولكن الجميع يغلب عليه القهر، لأنه يشعر مع الظلم الواقع عليه وعلى بلده؛ سواء أكان من المستعمر الأجنبي أو الحاكم التابع للمستعمر الأجنبي؛ فيبحث عن هويته بنفسه، ويحاول التأكيد على وجوده من خلال الكتابة للتنفيس عن ذلك المكبوت بداخله. ولكن لا بد أن نجزم بأن موضوع الهوية من أكثر الموضوعات انتشاراً في البحث في هذا التوقيت؛ حيث يعتبر موضوع الهوية الثقافية من أكثر الموضوعات إثارة للقلق والجدل في معظم مجتمعات العالم في الوقت الراهن نظراً لما تتعرض له الثقافات المختلفة من عوامل التأثير والتغيير والتبديل، بل ومسخ الملامح

الأساسية المميزة"[1]. وسوف يكون تركيزنا على الرواية المكتوبة بالإنجليزية وترجمت إلى العربية، خاصة وأن هناك بلاد عديدة تتحدث الإنجليزية مثل نيجيريا، ولسبب آخر أن الروايات المكتوبة بالإنجليزية كانت أوسع انتشاراً من الفرنسية، وفي الوقت نفسه لا بد أن نقر بأن هناك أفارقة كثيرين قد عشقوا الحضارة الفرنسية وكتبوا عنها وجعلوها هوية من هوياتهم مثلما فعل أويونو الكاميروني خاصة في عدد من رواياته مثل "طريق أوروبا".

وول سوينكا[2]

كتب وول سوينكا روايته" مات الرجل" بعد اعتقاله وسجنه بسبب كتاباته، وكانت دليلاً قاطعاً على الظلم الذي تمارسه السلطات ضد الأصوات المنادية بالحرية والباحثة عن الهوية الأفريقية، ولكنه لم ييأس وظل في حربه ضد الاستعمار والتهميش والظلم الواقع على بلده ووطنه الكبير أفريقيا، فكانت هذه الرواية تراجيديا للتعويض عن الآلام التي ذاقها الكثيرون من الأحرار في نيجيريا وغيرها من القرن الأفريقي، وقد أكد سوينكا في هذا العمل على أن الحياة والوجود بأثره لن يكون بالهناء إلا إذا كانت هناك حرية للبشرية جمعاء. دوَّن سوينكا في هذا العمل القاسي على النفس كل ما كان في يومياته التعيسة في السجن وتعتبر مجموعة من ذكرياته المؤلمة في مكان لم يحبه وهو المكان المكروه الذي نبه إليه قبل ذلك غاستون باشلار في كتابه "جماليات المكان"، إنه السجين الذي يحلم بالحرية، هو البطل المنادي بدفع الظلم عن قومه وعن لغته وهويته، صاحب صرخة فردية معبرة عن المجتمع بكل ما فيه من مآس وأحزان في ظل تلك الظروف القاسية، والآلام المدوية، التي نالت الجميع وأصبحت المذابح متواصلة بعد أن استنزف الاستعمار خيرات البلاد شرقاً وغرباً، وقد ترك من خلفه تلك المجموعات الموالية له والتي أحدثت انقلابات عسكرية متوالية إرضاء له وتلبية لرغباته التي لن تنتهي، يبدأ وول سوينكا روايته " مات الرجل" بالتأكيد على التضامن مع بلده وما ينتابه، لأنه جزء منه ويذكر ذلك بعد أن أورد مقولة شهيرة لـ " جورج ما نغاكيس" يقول فيها: "حين تفرض الديكتاتورية على بلدك فإنَّ أول ما

[1] أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2013ص5

[2] وول سوينكا من مواليد 1934 في أبيوكوتا – نيجيريا، وهو كاتب أفريقي بامتياز معارض سياسي وكان مدافعاً عن الحقوق وباحثاً عن الحريات، وتم اعتقاله وسجنه، واستطاع أن يهرب من ذلك الظلم والقهر. وقد سعى إلى التأكيد على الهوية الأفريقية، منادياً من الحلاص من تلك الحروب والانقلابات والجوع رغبة منه في الوصول إلى أفريقيا الأمل والسعادة والحياة الرغدة.

تشعر به من اليوم الأول بالضبط، وهو شعور عفوي تماماً في مباشريته ومتجرد عن أي تطوير ذهني، هو الذل. إنك محروم من حق أن تعتبر نفسك جديراً بأن تكون مسؤولاً عن حياتك ومصيرك، وهذا الشعور ينمو يوماً بعد يوم نتيجة الجهد المتواصل للمستبد لكي يفرض على ذهنك قبول كل الابتذال الذي يؤلف العالم الذهني الجهيض للدكتاتوريين"[1]. وهو ما يؤكد عليه الكاتب في الصفحة نفسها بأن الذل هو سيد الموقف حين يشعر الإنسان بالقهر في البلد التي يحيا فيها باحثاً عن البطل الذي يخلصه من ذلك الاستعمار الداخلي الذي من أهل البلاد، ولكنه تعود على الاستعباد، استعباد الشعب نظير إرضاء كبرائه من الاستعماريين الآخرين، لذلك فهو يعزف على الوتر نفسه من ناحية استنهاض الهمم كي يفيقوا من كبواتهم، يقول معلقاً على كلام مانغاكيس: " أنا أشعر بهذا التضامن فقط مع أبناء شعبي الذين عانوا ذلك الطغيان هذا وأستبعد وأتجاهل البقية. مهما تكن العوامل التي استدعت الدكتاتورية كضرورة، فإن تلك العوامل اختفت والدكتاتورية الحالية هي عبء مخزٍ. وهي فوق ذلك مذلة لأنها حسب علمي وعلمكم فاقت أسوأ تجاوزات حكومة المدنيين قبل عام 1966 سواء من حيث الغطرسة الوحشية في القمع أو الفساد المادي أو التدمير المنظم لكل الأهداف الثورية الأصيلة"[2].. وقد توجه بهذا العمل إلى شعبه المظلوم ذاكراً بأن حديثه هذا غير موجه للنخبة التي يدعونها بل هو موجه إلى العامة من الناس والبسطاء منهم؛ لأنه خرج من بينهم، ومهما تمادى الظلم فلا بد من أن يوم الخلاص سيأتي وسيشعر أهل البلاد بذلك النصر قريباً لأن الظلم أيامه معدودة وإن طال والحق أيامه طويلة وإن بعد وكان مؤمناً حق الإيمان بأنه صاحب قضية يدافع عنها ألا وهي قضية " الحرية والعدالة الاجتماعية المفتقدة في معظم البلاد". وكان دائماً ما يقدر التعددية الثقافية في بلاده ويحترم آراء الجميع إلا تلك الأراء المنادية بوجود المستعمر الذي أراد أن يطمس هويته وكيانه، فهناك نخبة ممن يطلقون على أنفسهم "المخلصون" ولكنهم لم يكونوا إلا حجر عثرة في استعادة الهوية من المغتصبين "أتوجه بهذا الكتاب إلى الشعب الذي أنتمي إليه وليس النخبة الجديدة , وليس إلى تلك الشريحة العريضة من العبيد ذوي الامتياز الذين يسندون القصور الرخامية لطغاة اليوم. إنني أستمد شهادتي من تجربتي الشخصية, وأتهم بناء عليها هؤلاء بجريمة استغلال الحرب"[3].

[1] وول سوينكا، مات الرجل، ترجمة راتب شعبو، دار التكوين، دمشق/ بيروت 2015ص 13

[2] وول سوينكا، مات الرلجل، ص 13، 14

[3] موت الرجل ص 14

ويكاد يبكي لأن الحرب التي تقام بين الحين والآخر كان منتسبو السلطة السبب فيها، وهذا عين الإجرام أن تكون السلطة نفسها سبباً في قيام تلك الحرب ثم يموت فيها العامة من الشعب والفقراء منه بحجة الوطنية. فالوطنية لا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء الغلابة ليس في نيجيريا فحسب بل هو الأمر نفسه الموجود في معظم البلاد المقهورة التي ما زالت حتى الآن تبحث عن أوطانها؛ لأن أوطانهم مسلوبة بل نقول إن أوطانهم مسروقة من قبل أولئك الأوغاد الذين يظنون أنهم مانعتهم حصونهم ولكن الظلم عاقبته وخيمة على الظالم وهذا ما كان يقوله ويؤمن به سوينكا؛ لأنه قد ذاق الظلم وأهين وسجن بسبب بحثه عن المخلص لهذا الوطن وبحثه عن هويته وكيانه رغم احترامه لثقافة الآخر "إن أعظم إهانة توجه إلى ذكاء الشعب هي حين يكون مستغلو السلطة هؤلاء, وهذا منتهى السخرية, متورطين في جريمة التسبب في الحرب نفسها. حسب شهادتي , من الواضح أن مستغلي السلطة هؤلاء مذنبون. ويبقى الجدال في درجة إجرام كل منهم فقط . إن تجاوزاتهم الحالية وتغاضيهم المتبادل عن الجريمة , جعل من الضروري أن يكون مضمون هذا الكتاب غير مساوم لأنَّ الخطوة الأولى نحو إسقاط الإرهاب هي تفريغه من إدعائه الكاذب بالاستقامة, إنها الخطوة الأولى فقط . ففي أي شعب يخضع طائعاً " لإذلال خوف يومي " يموت الإنسان"[1] بالفعل يموت الإنسان ويقصد بالإنسان هنا الإنسانية؛ لأنَّ الإنسان بدون كرامة لا يعتبر إنساناً فقد انتزعت منه الإنسانية بانتزاع الكرامة وإهانته، وهو ما كان من قبل السلطات الحاكمة في نيجيريا في القرن الماضي قبل كتابة الرواية بقليل في ستينيات القرن الماضي تحديداً، والكاتب يحاول أن يعمم ما كان يحدث معه، لأنه يعلم أن ما يحدث معه هو الشيء نفسه الذي كان يحدث مع الآخرين في بلدان أخرى حتى وإن تعددت ثقافاتهم؛ لذلك فإنه يحاول بقدر المستطاع التعبير عن الإنسان المقهور في وطنه، بكون أنه إنسان بصرف النظر عن معتقده أو دينه وكانت التجربة على نفسه هو؛ لأنه يدون من خلال هذا العمل رحلة اعتقاله في سجون الوطن أو الذي من المفترض أن يكون هو الوطن، فهو يؤكد على أن هذا الوطن ليس وطنه لأنه يرى خيراته تذهب إلى الانتهازيين. ويرسخ في عقله أن تلك الخيرات من المفترض أن تعود إلى بلاده وأهل بلاده، رغم أنه يعلم حق العلم أن وطنه الذي اعتقل بسببه هو قدس الأقداس؛ لأنه يمثل الحياة بالنسبة له، ولكن الحكام قد دنسوه، وفعلوا فيه ما لا يفعل في أرض أخرى، فبعد أن كانوا سبباً في قيام حرب نرى موت الآلاف من الشباب في الطرقات هنا وهناك لا

[1] موت الرجل ص 14

لشيء إلا إرضاء لغطرسة أولئك المتكبرين الذين لا يقدرون شيئاً اسمه الوطن، بل يقدرون ما يسمى " بالسلطة " يريدون فقط استعباد الناس، وإخضاعهم لسلطانهم دون مواربة، ودون استحياء، بل يريدون أن تكون الكلمة كلمتهم دائماً لا يشاركهم فيها أحد ولا ينازعهم في سلطانهم أحد. لقد أكد الكاتب أيضاً في هذا العمل الرائع على حبه الذي لا يشك فيه أحد لوطنه الذي طالما حلم به في هناء وسعادة ودائماً ما كان يردد أفريقا السعادة والأمل، إلا أنه يرى فيما حوله أن الوطن ليس وطنه بل وطن آخرين ليس لهم علاقة بالوطنية التي يدرسونها في المدارس بل إنهم لا يفكرون في معنى الأرض والانتماء والهوية، وكيف أن الأرض هي الأم بالنسبة للإنسان ولا يعلم تلك الحقيقة إلا من تغرب عن الأوطان أو نفي خارجها، وما عاشه الكاتب كان كفيلاً أن يكتب عنه في هذا العمل الأدبي المتميز والذي يعتبر من أدب السجون. وهو ما يحتاج تحليل نفسي قادر على سبر غور النفس الإنسانية؛ لأن القضية أصبحت تبحث في الوعي واللاوعي عند الإنسان الذي يناله الألم فتتأثر نفسه "لقد حرصت العديد من الدراسات النفسانية على استحضار القاعدة الجوهرية في التحليل النفسي، عند جاك لاكان "اللاوعي مُبَنْيَن مثل اللغة"[1]. وهو أمر يحتاج إلى مناقشات عديدة ترتبط بتحليلنا النفسي للأعمال الأدبية.

يروى لنا الكاتب قصة اعتقاله في قوله:" إن اعتقالي والمكيدة التي دبرت لي قضيتان مختلفتان تماماً. الدافع لاعتقالي النشاطات التالية: إدانتي الحرب في الصحف النيجيرية , وزيارتي القسم الشرقي من البلاد, وسعي إلى تجنيد مثقفي البلد في الداخل وفي الخارج لتشكيل مجموعة ضغط تعمل على حظر كلي لتزويد الأطراف المتنازعة في نيجيريا بالسلاح , وخلق قوة ثالثة تستفيد من المأزق العسكري الذي سينتج عن هذا الحظر من أجل رفض انفصال " بيافرا " وديكتاتورية الجيش القائمة على الإبادات الجماعية والتي تجعل الحرب والانفصال شيئين لا محيد عنهما"[2] تلك كانت مكائد قد رصدت له وكما هو معتاد في مثل هذه الحالات أن يجمعوا كل صاحب قلم حر مناضل بكلمته ليلقوا به في السجون فقد نادى بالتحرر من تلك المهاترات والانفصالات التي ستمزق – لا محالة – الوطن. حاول الكاتب أن يجند أصدقاءه من الصحفيين من أجل تناول الحديث عن عدم تزويد الأطراف المتنازعة بالسلاح خوفاً مما لا يحمد عقباه من قتل وتشريد، كما نادى الكاتب بعدم انفصال بيافرا وهو جزء لا يتجزأ من بلاده، " قلت في البداية

[1] حسن المودن، الأدب والتحليل النفسي، كتاب الدوحة، مع مجلة الدوحة العدد 142 أغسطس2019 ص17

[2] مات الرجل ص 15

إن اعتقالي والمؤامرة التي حيكت حولي قضيتان مختلفتان, وهذا صحيح فقط من حيث إنه ومنذ لحظة اعتقالي حتى تسريب تلك الرسالة إلى أيدي أولئك الذين تتضمن تلك الرسالة إدانة لهم, لم يكن يبغي أسري أكثر من إبعادي من التداول. أما في العمق فإن الاعتقال والمكيدة , ينبعان من مصدر الفساد نفسه. أهم من هذا , فقد كانت الرسالة التي هربتها من السجن تشكل بالنسبة لي برهاناً على صحة موقفي السياسي "[1]. وقد آثر أن يحذف من تلك الرسالة بعض الأسماء الوطنيين الحقيقيين من الجنود والذين يعتبرهم ثروة حقيقية للبلاد يقفون ضد أولئك الهمجيين الذين أكلوا خيرات البلاد ظلماً وعدواناً. لقد مات الرجل ويقصد من هذه العبارة أن الرجل الذي كانوا يعذبونه قد مات وهو صحفي معروف وكانوا يطلقون عليه اسم "الكلب سيغمون سويميمو" وقد جاءت له تلك الرسالة وقت ما كان يدون ما حدث له في اعتقاله في بلده وقت أن فر منهم هارباً إلى خارج البلاد خوفاً من بطشهم. الرسالة هنا أصبحت أيقونة ودالة مهمة على العمل، وهذا ما أكد عليه دي سوسير في ثنائياته الشهيرة حول الدال والمدلول، وكانت الرسالة في هذا العمل طريقاً للتنفيس، وللرسالة عبر تاريخها الطويل دور مهم جداً خاصة في العمل الروائي، منذ جاك جان روسو في روايته "جولي أو هلويز الجديدة" ومروراً بمحمد حسين هيكل في رواية "زينب"، وصولاً إلى توفيق الحكيم ومن بعده في استخدام الرسالة باعتبارها تقنية سردية مهمة لها وظيفتها في تنبيه القارئ وتحفيزه. والرسالة إذا استخدمها الروائي من خلال المنظور الروائي، كانت مثل الكاميرا تلتقط بعض الجوانب التي لا يشعر بها البعض أحياناً وتدخل في منطقة اللاوعي إلا أنها أصبحت دالة وكان التحليل النفسي من قبل يرفض أن يستخدم اللاوعي علامة بالمعنى الذي يقصده دوسوسير؛ أي علامة لها مدلول ثابت، فاللغة بالنسبة إليه، ليست نسقاً من العلامات، بل نسقاً من الدوال؛ ويعني هذا أن نظرية دوسوسير هي نظرية للعلامة، في حين أن نظرية لاكان هي نظرية للدال"[2]. وكانت الرسالة دليلاً على شيئين خوف البطل من تمزيق الشعب بهذه الطريقة والسعي لنسيانه هويته وتاريخه، الشيء الآخر، لا يوجد احترام للآخر أو تقدير لمن يخالف الرأي. وهنا تحديداً كانت الرسالة بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجه الطغاة، واستخدام الكاتب لتقنية الرسالة حتى ولو كان يتناول سيرة ذاتية يعتبر نوعاً من الترويح عن المتلقي، ولكن هنا وفي هذا الظلام الدامس الذي يبحث فيه عن ثقب إبرة للنور أخذت الرسالة طريقها الصحيح

[1] مات الرجل ص 15

[2] حسن المودن، الأدب والتحليل النفسي، مرجع مذكور ص17

في تصويب الأوضاع. فالكاتب حريص على الوطن قبل أي شيء آخر وأيضاً كان حريصاً على الوطنيين الحقيقيين، ويعتبر الكاتب أن هؤلاء المواطنين مشاركون معه في دفع هذا الهم الأكبر عن كاهل البلاد، فالوطن هو الحضن الكبير الذي يجمع ولا يفرق، وكلمة المواطنة "تأخذ جذرها اللغوي من الوطن، فتأتي على صيغة مفاعلة لتدل على التحالف أو الاجتماع والتضامن حول رابطة الوطن؛ باعتبارها حالة التواطن والاشتراك في الوطن ومقاسمته"[1]

لقد كان الكاتب على حق حين استطاع تسريب رسالة من السجن إلى زملائه الوطنيين تلك الرسالة التي حملت عنوان " العدالة " وهو يقصد منها العدالة المفتقدة والذل المتعمد حتى يكون الجميع على بينة ولكن للأسف فإن هناك من يطلق عليهم " النخبويين " وهم من المقربين من السلطات لا يتورعون لحظة عن رغبتهم في الانتقام من أولئك الوطنيين لذلك كانت الرسالة التي هربها الكاتب في وقتها، حيث أراد من خلالها التنبيه على عدم الانفصال حتى يظل الوطن كتلة واحدة ويتمتع بهويته وثقافته، وأن تبتعد تلك الفصائل المتناحرة وألا تمول من أي طرف خارجي على حساب الوطن " موضوع الرسالة (العدالة) يستأنف جدلاً أخفى تحت قشرة رقيقة فقط من الدم، قشرة تتآكل يومياً تحت الدوس المتواصل من جزم القامعين. إنه يلخص الإخفاق الأخلاقي الهائل للأمة إخفاق أوصل إلى الانفصال والحرب. وحقيقة هذا الإخفاق هي ببساطة أنه عندئذ، كما الآن، عانت الأمة من الذل جراء خيانة دفعت إليها ودعمتها وأظهرتها قوى ليس لها من هدف أو أيديولوجية سوى الدوام الذاتي من خلال الإرهاب المنظم"[2]. وقد أبان أكثر عن مقصده من تلك الفقرة السابقة والتي يتناول فيها الإخفاق والذل والانفصال المتعمد من قبل الخونة في قوله:" إنه الإخفاق في: "امتلاك بعد نظر تاريخي وإدراك أن الأمم المُذلّة مدفوعة لا محال إما إلى تفسخ أو ذبول روحي وأخلاقي أو توق إلى الانتقام ينتج عنه سفك دماء وفوضة"[3]. حاول سوينكا أن يجمع حوله المواطنين الحقيقيين الغيورين على بلادهم المحبين لتاريخهم؛ لأن إحساس الفرد بالهوية يعد نتاجاً للعلاقات مع الآخرين في المجتمع الذي هو جزء منه، ولذلك فإن الفكر الجماعي يركز على فكرة المواطن المرتبط بمجتمعه وعلى الانتماء لهذا

[1] د. محمود أحمد عبدالله، المواطنة في الرواية المصيرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة القاهرة 2016 ص16

[2] مات الرجل ص 16

[3] مات الرجل ص 16

المجتمع"[1]. وهذا الأمر عانى منه سوينكا كثيراً فقد رأى أن البعض من بني جنسه يميلون إلى هذا المستبد، ولم يبحثوا عن تاريخهم وانتمائهم وهويتهم الأفريقية، ففي نظره بالفعل أن هذا الظالم لا يمكن أن يعتبر وطنياً لأنهم يتباهون بالقتل والتدمير ومحاولة الانفصال وذرع الخوف في قلوب الناس، ومن الطبيعي أن يميل إليهم البعض خوفاً من التنكيل والبطش، الأمر الذي أثر على الحياة الاجتماعية والترابط بين القبائل في قلب القارة الأفريقية وخاصة في نيجيريا، التي هي وطن سوينكا الذي عاش معه وبه سنوات عمره حتى بعد حصوله على جائزة نوبل.

لقد بحث كثيراً وول سوينكا عن كيانه المسلوب وهويته الضائعة وعن البطل المخلص لتلك الأزمة الطاحنة التي أضرت البلاد لعقود طويلة والتي أثرت على البلاد ثقافياً وفكرياً، وكثر ما تناول الكاتب تلك الأزمات التي تمر بها البلاد من قتل وتعذيب على أساس عشائري وإبادة جماعية هنا وهناك ودارت برأسه تخيلات لبلد يتمزق ليس له من سبيل إلا الابتعاد عن تلك المهاترات المقصودة من السلطات الحاكمة، وقد نادى كثيراً باستقلال القضاء في الغرب النيجيري وعدم دخوله في معترك تسويغ الإبادة الجماعية، وفي الوقت نفسه يأسف كل الأسف أن القضاء يبتعد عن مقاضاة المجرمين الحقيقيين الموجودين في شرق البلاد وغربها ويقر كذلك بتلك الإبادة الجماعية التي لم يحسم فيها القضاء ولم يقل فيها كلمته يقول" دعوني أكرر إن ما حدث في حالة إيمانويل أوغبوندا ليس إلا مثال من آلاف حالات الإبادة المريعة التي تتم بموافقة الجهازالقضائي في الغرب وبدعم من قوى وسلطات أخرى يجب تسميتها وإدانتها وإجبارها على المثول أمام المحكمة يوما ما، قوى تقتل الأمل بمستقبل هذه البلاد، وتحكم على جزء كبير من شعبها بالقتل والتشويه المقصود، كل ذلك باسم الوحدة"[2]. ورغبة من الكاتب في إيجاد حل جذري يخلص البلاد من تلك الآلام أراد أن تُسن قوانين رادعة لكل من تسول له نفسه أن يتعدى على الآخرين باسم الدين أو العرق العشائري وأن يجرم تدخل شخص أو جماعة في شأن شخص آخر أو جماعة أخرى على أساس التمييز القائم على أساس عشائري، فكلٌ له عاداته وتقاليده وثقافته. كل تلك الأمور كانت قابعة في عقل الكاتب حين رأى ذلك القتل العشائري والقبائل المتناحرة في وطنه وأراد الخلاص من ذلك فكتب وأبدع في كتابته كي يصل صوته لكل الأفارقة، وليس

[1] Michael Lister and Emily pia,Citizenship in contemporary EUOPE,Edinburgh University press,2008,pp.18-22

[2] مات الرجل ص20

النيجيريين فقط، حتى تنتهي تلك الأوهام القائمة على أساس طائفي أو عشائري أو حتى ديني، فهو يبحث عمن يخلصه من ذلك في ظل ظروف صعبة نالت كثيراً من البلاد هنا وهناك، فقد كانت عينا سوينكا على هويته التي باتت مهددة، تلك الهوية المرتبطة بالأرض واللغة والثقافة؛ يؤمن بالتعدد الثقافي والفكري لكل قبيلة أو عشيرة، وكان كل ما يخشاه من تلك الطائفية أن تستمر على هذا الحال لفترة طويلة مما يؤدي إلى تمزق شمل البلاد، وتصبح فريسة سهلة للمستعمر كما كان في السابق، وتضيع من ثم الهوية وأيضاً الثقافة. هذا الأمر من الكاتب يعتبر إدراكاً مجتمعياً سيسيولوجياً "وهذا الإدراك السيسيولوجي للثقافة يهتم بالقاعدة أكثر من الاستثناء، ويلهم عملية التقنين الجمعي بأكثر مما يغذي الاستثناء الفردي. ومن ثم فهو الوجه الأصلح لبناء الكيانات الكبيرة، أو لتحقيق التعايش فيما بينها، لأنه يتمتع برؤية توافقية على الصعيد النظري ونزعة تكاملية على الصعيد العملي"[1]

ينتقد الكاتب جيش بلاده الذي يتباهى ويفتخر بالقتل " كونوا صادقين واسألوا أنفسكم ما الجدوى من وجود دستور للسلوك عندما يكون الجيش موبوءاً بقتلةٍ يتباهون بكونهم قتلة حين تكون ضحيتهم من الإيبو، ويُعاملون، حتى في الفترة الوجيزة من حجزهم، معاملة السجناء فائقي الأهمية، يخرجونهم فترات تنفس نظامية تحت ذريعة "التحقيقات" ويحظون بالاهتمام والامتيازات حتى من أعلى موظفي السجن؟ "دستور سلوك" ضد عشرات الآلاف من الحالات المتباهية من هذا النوع؟ جنود أميون في معظمهم؟ أنا أسمي ذلك نفاقاً"[2]. هذا الانتقاد من الكاتب له ما يسوغه حيث إن قوة الجيش في بلاده لم تتورع عن القتل وعلى الرغم من ذلك لم تحاكم تلك القوى التي من المفترض أن تكون حامية للناس والعشائر والقبائل في كل مكان، وأراد الكاتب كذلك أن يبين أن الظلم ليس له ما يبرره حتى ولو سجنوا أولئك القتلة إرضاء للناس وقد سمى ذلك نفاقاً وهو غير راض عنه؛ لأنهم يقومون بعملية تلويث للتاريخ وتلويث للحقائق التي من المفترض أن تظهر للكافة من الناس. وهو ما يؤثر بشكل مباشر على الحياة الاجتماعية بعد تفسخ المجتمع، ويصبح الفرد في تيه لا يجد له دليلاً يسير عليه "كما يلحظ زيما في رواية بروست إزدواج في النظر إلى الهوية الفردية؛ حيث يصبح الفرد مهدداً بفقد نبالته مثلاً إذا هو فقد رأسماله، كما أن تميز النبيل متصل بقدر ما له من مال. وهو ازدواج له صدى في شكل الرواية بازدواجية

[1] صلاح سالم، التعددية الثقافية وحوار الحضارات والحوار العابر، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 3 المجلد 44 يناير مارس 2016، ص11

[2] مات الرجل ص 20

الشخصية"[1]. هذا ما يؤكد ما أنتواه القادم الغربي من جعل الأفارقة طوعه حتى في التعليم فقد "حرص المستعمر على ألا يتلقى المواطنون الأفارقة إلا القدر القليل من التعليم، وبالشكل الذي يناسب احتياجات المستعمر لإدارتها تحت قيادته، حتى من حصلوا من الأفارقة على قدر عالٍ من التعليم لم يكن مسموحاً لهم بتقلد المناصب القيادية في الدولة، وهو ما أدى إلى نقص الخبرة لديهم في الإدارة، وبالتالي حين حصلت الدول الأفريقية على استقلالها لم يكن هناك إلا القليل من المواطنين الأفارقة المتعلمين الذين يفتقرون بشدة إلى إدارة المؤسسات"[2].

إن ما خطه الكاتب النيجيري في عمله هذا ما هو إلا سجل خاص لأحد الناجين من الموت المحقق في سجون وطنه، ومذكرات شخصية تضم ما حدث له شخصياً أي أنه هو البطل في العمل ويصف كتابه هذا بأنه كتيب يضم جزءاً من حياته التي قضاها هناك وفي الوقت نفسه يقر بالتعددية الثقافية "من أجل البقاء في تعايش مختلط. كما أن هذا ليس كتيباً عن البقاء, إنه سجل خاص لأحد الباقين. لربما ساهم على الأقل في طرد النعاس عن ضمير العالم الراضي بوجود آلاف الأرواح ترزح تحت سلطة فاسدة, سلطة تحتاج, لكي تبقى, أن تحقن نفسها بأعمال لا إنسانية"[3]. وكانت تهمته أن وصف جيش الغرب بأنه جيش احتلال ويقصد بالغرب الغرب النيجيري، وهو ما تم تدوينه في تلك التهمة التي وجهت له مع باقي التهم المدونة في حقه، وقد وجد كل ما كتبه في هذا الشأن مدون لديهم في دفاترهم يقول الكاتب" على مقالتي. اثنتان من الرسائل تتهمانني مستخدمتين العبارات نفسها بالحرف, بأنني أدعو الجيش في القطاع الغربي جيش احتلال. أعلم أن لديكم هنا دفتر سميك من القصاصات يحتوي كل ماسبق لي أن كتبت, وكل مايزعم أنني قلت. قل لي إن كنت قد أعلنت مثل هذا الشيء"[4]. وكانت تحقيقات تجرى معه في هذا الشأن وأسئلة عديدة تحاول أن تنال منه ومن كرامته على حسابه الشخصي .

وتبدو القضية القديمة الحديثة في التحقيقات كافة، التي تظهر الحقيقة بين المثقف والسياسي، وهي قضية جدلية يظهر منها أن المثقف يفهم ويعلم حقيقة ألاعيب السياسي الذي لا

---

[1] د. سيد البحراوي، علم اجتماع الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1992 ص54

[2] د. عبير الفقي، إصلاح الخدمة العامة في أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2020 ص92

[3] مات الرجل ص 23

[4] مات الرجل ص 32

يفهم شيئاً عن ذلك المثقف فيضطر السياسي أن يتهم المثقف بعدم المعرفة على الرغم أن المثقف على علم ودراية بتلك الأمور التي يدافع عنها السياسي باستماتة يقول الكاتب: "ولكن ما الذي يعطي أفراداً مثلك ومثل تاي سولارين الحق في أن يعتبروا أنفسهم يعلمون كل شيء؟ ما الذي يجعلكم تعتقدون أنكم في أبراجكم العاجية تمتلكون حلولاً لمشكلات البلد؟ عندما تضع الحكومة سياسة معينة, ما الذي يجعلكم تعتقدون أن لديكم ما هو أفضل؟ أنتم مثقفون تعيشون في عالم من الخيال ومع ذلك تحسبون أنفسكم أكثر علماً من رجال رازوا فلديهم العديد العديد من العوامل، كي يخرجوا بقرار"[1]. وتلك كانت من المشكلات التي تواجه معظم المجتمعات الإنسانية، وهي العلاقة بين المثقف والسياسي فكيف للمثقف أن يقبل بقرارات السياسي التعسفية دون أن تمر عليه كي يبدي رأيه فيها إذا ما كانت متعلقة بالفكر والإبداع وكيف للسياسي أن يتخذ ذلك القرار دون أن تكون هناك موافقة من المثقف ولماذا لا تكون هناك حلقة تكاملية بين المثقف والسياسي؟ بمعنى أن المثقف يطرح على السياسي مشروعه ورؤيته. وعلى السياسي أن يتبنى ذلك المشروع ويتخذ القرار المناسب له إذا ما كان فيه فائدة ستعم على الجميع. تلك كانت قضية الكاتب مع السياسي الذي حكم على المثقفين بأنهم يعيشون بخيالهم في أبراجهم العالية دون النزول إلى أرض الواقع ويذكر السياسي أنهم يتخذون القرارات التي تصلح من حال المجتمع ومن هنا يظهر بجلاء ذلك التعنت ما بين المثقف والسياسي. وهي قضية جدلية، فالثقافة هي طريق النور بينما السياسة هي طريق إكمال هذا النور بأخذ القرارات المناسبة "فكما أن الثقافة لا توجد أبداً في فراغ وإنما هي ترتبط دائماً بكل النظم والأنساق الاجتماعية السائدة في المجتمع، فإنها لا توجد أبداً في عزلة تامة عن غيرها من الثقافات، بل على العكس من ذلك تماماً تقيم علاقات وصلات قوية ومستمرة مع ثقافات المجتمعات والشعوب الأخرى المجاورة"[2] حتى مع السياسيين فالسياسيون هم مثقفون أيضاً ولكن المجال السياسي طغى على المجال الثقافي بحكم عملهم.

وفي لحظات مناجاة يتحدث الكاتب النيجيري مع نفسه حين كُبل بالسلاسل في السجن تمهيداً لترحيله إلى مكان آخر فيحاور تلك النفس عن هذه السلاسل وتلك الأغلال قائلاً: "عشت تناقضاً حياً في كل هذا, في وعيي الذاتي البشري وفي تعريفي الذاتي. في الواقع يمكن القول إن تعريفي الذاتي لم يتضح لي بهذا النقاء أبداً حتى هذه اللحظة حين رأيت هذه السلاسل على كحليّ. وكان تعريفاً سلبياً عرفت نفسي على أنني كائن لا وجود للأصفاد بالنسبة له, على أنني

[1] مات الرجل ص 33

[2] د. أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2013 ص6

في النهاية كائن بشري, بمقدار ما يمكن القول إن الجوهر البشري يتخذ في بعض الأحيان طبيعة ملموسة, يمكنني القول إنني تذوقت وأحسست هذا الجوهر داخل تناقض تلك اللحظة. لم أكن شيئاً "[1] وهو يقر بأنه يعرف نفسه تعريفاً سلبياً بأنه إنسان لا بل هو أصبح غير ذلك حين رأى تلك السلاسل في قدميه، وكأنه مجرم من طراز رفيع، وظهر ذلك التناقض بين كونه بشراً وبين كون تلك السلاسل قد كبلت حريته فكيف يطلق على نفسه أنه كائن بشري وفي الوقت نفسه يرى تلك الأغلال والسلاسل تشل حركته وتحبس حريته، كل ذلك لأنه طالب بالحرية والعدالة الاجتماعية التي من المفترض أبسط حق من حقوق الإنسان التي كفلها ربنا لجميع البشر. وهو في طريقه إلى ذلك التحرر من تلك القيود يحاول تذكر أيام المعتقل التي لم تبعد عنه كثيراً فهي حاضرة بكل ما فيها من جراح ومآس "فضول. حيرة اهتمام خاص. عيون السجناء تقتات على القادم الجديد. كنت قد قضيت وقتاً في زنازين البوليس, في حجوزات انتقالية, لكني لم أكن أبداً في مجمع كامل يدعي سجناً. التلاؤم كان لا واعياً, إيقاع جسدي متراخ سلفاً, فجعلته أكثر تراخياً أيضاً. أنا في حاجة ماسة لإرسال مبلغ من المال إلى عائلتي . هل يمكنكم أن تؤمنوا لي الحصول على شيك؟ .لا أنت معتقل. علينا أن نأخذ موافقة البوليس قبل أن نقدم على أي شيء, إنهم صارمون جداً في هذا "[2]. وهو في المعتقل لم ينس أهله رغم تلك الآلام التي آلمته وأراد أن يرسل مبلغاً إلى أهله الذين كانوا ينتظرون مرتبه أولاً بأول من عمله قبل الاعتقال. وهنا وفي هذه الجزئية بين السجان والسجين تظهر ثقافة كل منهما؛ فالسجان مثقف بثقافة القيادة وهي كيف يقود ويقمع من أمامه ويرضخه لرغباته، وأن يشعر أن من أمامه مذلول ليس له قوة ولا حياة ولا كيان، بينما السجين مثقف بثقافة الدفاع عن النفس بقدر المستطاع، يحاول أن يثبت براءته من أي تهم اتهم بها،وأن يبرهن على حبه للوطن؛ لأنه يحيا فيه مع من يختلف معهم دينيا وثقافياً.

لقد كان الكاتب وول سوينكا محقاً في بحثه عن هويته والخلاص من المستعمر الداخلي التابع للمستعمر الخارجي، لأن المستعمر الداخلي يعلم الكثير عن الأرض التي يحيا عليها، وبالتالي يقوم بأفعال من شأنها أن تنال من أهل البلاد التي يتحكم فيها وليس يحكمها، لأنه بهذه الطريقة يقوم بعملية تحكم في الناس ومعه السلاح فمن لم يرض بحكمه فيقوم بقتله أو التنكيل به أو أن يُزج به إلى غياهب السجون، الأمر الذي يجعل الإنسان يخرج عن شعوره، ويصاب بألم

[1] مات الرجل ص 140

[2] مات الرجل ص 162

الإحباط، بل يصل في بعض الأحيان إلى أن يكره المكان أي يكره الوطن ويصبح معادياً له ولا تعنيه من ثم الهوية أوحتى الثقافة. وكان كاتبنا من الذين زُج بهم إلى السجون؛ لأنه معتقل رأي أي أنه كان يكتب ويعبر عن رأيه مما يحدث في بلده من انقسامات مميتة أودت بحاة الكثيرين وقتل وتشريد في كافة البلاد من الشمال إلى الجنوب، لذلك فقد حاول أن يرفع صوته باحثاً عن الخلاص مما كبل الجميع وقيد الجميع، ويبحث الجميع عمن يجدون فيه المثل الأعلى للخلاص من تلك الآلام التي آلمت الجميع، ولم يعلم أحد بتلك الحقائق المثيرة إلا من خلال الأدب ومن خلال هذا الرصد الروائي والذي يعتبر بمثابة توثيق للأحداث التي عاشها أحد المثقفين واستطاع تدوينها، فيدافع عن نفسه بالثقافة على الرغم من أن هناك من يختلف معه في فكره وثقافته، اعتنرافاً منه بتلك التعددية ويريد أن يعيش سالماً تحت المظلة الكبرى للبلاد.

وفي رواية " المفسرون" لسوينكا نراه يجمع بين التعدد الثقافي والفن ليعبر عن معانات بعض المثقفين والفنانين الاجتماعية والنفسية في ظل الوسط السياسي وما انتاب ذلك من ألم اجتاح نفوس البعض منهم، وكانت رواية بانورامية متلونة في النواحي الاجتماعية بأسلوب فيه نوع من السخرية مما يحدث على أرض الواقع عن طريق حوارات كثيرة نلمح منها نوعاً من الفكر الحر الذي يريد أن يدونه بطريقة أو بأخرى، ونرى ذلك من حرصه على رصد معاناة البعض والتي يجب فيها على الدولة أن ترعاهم أي أن يكون لهم جميعاً من يأخذ بأيديهم تحت مظلة الدولة حتى وإن تعددت ثقافاتهم واختلفت دياناتهم. هذا البطل قد تمثل في الدولة بكون أنها الكيان الكبير الذي من الممكن أن يرعى أولئك الفنانين والمثقفين الذين لم يجدوا بداً من اللجوء إلى الوطن للوقوف معه في تلك الشدائد التي كادت أن تعصف بهم وبالوطن. وقد أرسى البطل أجبو في هذا العمل حب البحث عن البعيد الذي رحل عن والديه اللذين ماتا في هذا البحر "لقد صار الأمر مختلفاً الآن، في انتظار النزول إلى الشاطئ، ومصارعة إخفاقه في أن ينعزل. الأمر مختلف عن خيبة الأمل، مخاوفه على كرامة جذوره. ومصير آكل نار منطفئ. لقد اعترف بالمسألة أخيراً، لقد كان هذا موضعاً للموت. وأقرّ أيضاً أنه كان منجذباً إليه، منجذباً إليه باعتباره حلماً في الانعزال"[1] هكذا عبر عن الموت الذي لحق أبويه في مياه البحر وعليه أن يكون حريصاً على تحقيق رغباتهما. وفي ذكره للمسيح عليه السلام فقط فيه نوع من البحث عن الهوية والكيان وعن التاريخ وعن الدين بعد أن أذاقتهم تلك الأزمات الكثير والكثير، فهم يتوهمون أشياء قد تحدث "

[1] وول سوينكا، المفسرون، ترجمة سعدى يوسف، دار المدى للثقافة والنشر، المجمع الثقافي أبو ظبي، الطبعة الأولى 1998ص13

لكن رجلاً أسرع إليهم وقادهم إلى الخارج ثانية. وقد لاحظوا الآن ما كان ينبغي أن يعملوه عند الدخول، الصفوف الدقيقة للأحذية قرب الباب. " اسمي العازر، لا المسيح ابن الله، خلعوا أحذيتهم مضطربين بسبب ما أثاروه من انتباه إلى أنفسهم"[1]. وفي ذكره للمسيح أيضاً اعترافاً منه بأن هناك من يجمّع وأن المسيحية باعتبارها ديناً هي ثقافة ولها أهلها، ولن يكون هناك اختلاف مع وجود دين آخر مثل الدين الإسلامي، فهم يعيشون معاً رغم اختلاف الدين وهذا هو التعدد.

وفي رواية " موسم الفوضى" يتناول الإهمال النهائي للذات والكيان باعتبار ذلك تابعاً للعبودية، حيث يتصدى في تلك الرواية إلى تلك الآلام التي خاضها جيله من الحصار الاستعماري الخانق الذي ولّد في نفوسهم نوعاً من الانتقام والخوف والاغتيال وأنساهم هويتهم، وولد كذلك ثقافات متغيرة، ثقافات تنتمي لجيل من الخيانة، نظراً لما رأوه من ذلك المستعمر الذي قتل وسفك الدماء ونال من الشعب النيجيري، وما كان يعتصر القلب ألماً التبعية الكاملة لمن جاءوا بعده حكاماً للبلاد، حيث كانوا على اتصال دائم بذلك المستعمر، وكأنهم موظفون لديه، يعترف الكاتب بأن معظم الشعوب تتفق في أشياء وتختلف في أشياء أخرى" فالشعوب تختلف في مظهرها أيضاً كما تختلف لوزة الهندعند درنة النيام، إنهم يأكلون أشياء مختلفة ويشربون أشياء مختلفة، يعبدون آلهة مختلفة لكنهم مع ذلك..."[2]. ويصف الكاتب الحياة وقتها بقوله :" طلقات الرصاص، رائحة بارود شديد، حدآت تطير خائفة، وجماعات الصيادين يملؤون بنادقهم من جديد بالمعدن المجنون، يضربون الغصون يفتتون ألياف الجذوع"[3]. فالصيد والرصاص ورائحة البارود وكذلك الدم موجود في كافة الأرجاء كما أخبر الكاتب عن ذلك منذ البدء، فضلاً عن وجود الخيانة التي أودت بحياة الكثيرين من الشعب النيجيري أي أن منهم من خان الآخر، وتأكيداً على تلك الخيانة التي كانت لدى البعض منهم والتي سهلت للعدو التربص بهم والتملك من أرضهم تلك الكلمات التي خطها الكاتب تعبيراً عن تلك الخيانة" ثم بدأوا يجرون استشارات طويلة؟ أخيراً قال رئيسهم: ليس هذا الإجراء لأننا نرفض الاعتقاد بأنكم من هذا البلد الملعون، بل لأنه كان بيننا خونة،

[1] وول سوينكا، المفسرون، المرجع السابق ص 215

[2] وول سوينكا، موسم الفوضى، زيد بن ثابت، دار التكوين ترجمة عبدالكريم ناصف، 1987ص14

[3] موسم الفوضى ص 15

أناس حاولوا شراء حياتهم وأملاكهم بحياتهم جماعتهم وكثيرون هم الذين فعلوا أشياء غريبة"[1]. لكلٍ فكره، وأصبحت ثقافة الخائن هي النيل من الوطني وهو في قرارة نفسه يؤكد أنه على صواب، لا فرق لديه بين الجار والغريب، الجار هنا أقصد به ابن بلده، والغريب هو المستعمر، حيث وقر في ذهنه وعقله أن ما يقوم به هو الصحيح، وأن هذا القادم من بعيد قد جاء ليخلصه من أعدائه الذين هم أبناء وطنه، وسار على هذا النهج، وهو ما أكده الكاتب في روايته التي حملت عنوان "موسم الفوضى" فكل شيء أصبح مباحاً.

تعددت الثقافات بسبب الاستعمار فمنهم من مال إليه ومنهم من تمسك بهويته الأصلية، ولم يبرحها مثلما فعل الكاتب. ولكن ما لا يعلمه الكثيرون أن في تلك الأزمات المتتالية للشعب النيجيري، كان هناك من يثق تمام الثقة في الوطنيين، الذين أرادوا إثبات ذواتهم، ومنهم الكاتب أيضاً، وإذا كان العنوان "موسم الفوضى" دالاً على حالة بالفعل عاشها الشعب النيجيري، فإن الأحرار من هذا الشعب تمسكوا بقضيتهم وهويتهم رغم اختلاف ثقافاتهم وأديانهم، لأنَّ المستعمر أراد تغيير كل شيء، وللأسف كان هناك من يؤيده في ذلك، أراد المستعمر فرض ثقافته ونجح في ذلك، كما هو حال المستعمر في كل البلاد التي غزاها، وأصبحت هناك ثقافات متعددة؛ ثقافة تميل وترتبط بهوية المستعمر البريطاني والذي ظل منذ عام 1861 حتى عام 1960، وثقافة الأرض الأصلية.

ثقافة القبيلة والبحث عن الهوية ودور البطل في رواية " الأشياء تتداعى " للروائي النيجيري تشينوا أتشيبي[2]

[1] موسم الفوضى ص 194

[2] تشينوا أتشيبي ولد في 16 نوفمبر 1930 وهو روائي نيجيري معروف كان والده وكيل كنيسة . وهذا يعني أنه كان يتعلم في مدرسة الإرسالية التبشيرية ايام الأسبوع، ثم منح أتشينوا حق الدخول إلى كلية الحكومة في أومواهيا 1944. في عام 1948 حصل على كلية الجامعة في إيدان حيث درس الإنجليزية والتاريخ والدين بعد تخرجه انضم إلى خدمة الإذاعة النيجيرية وهو رجل كثير الترحال له أعمال روائية عديدة . منها لم يعد مطمئناً 1960. سهم الله 1964. فضلاً عن روايته الشهيرة " أشياء تتداعى 1958، والتي ترجمت إلى أكثر من خمسين لغة وطبع منها أكثر من ثمانية ملايين نسخة مما جعل أتشيبي من أكثر الكتاب الذين ترجمت أعمالهم.

ثقافة القبيلة كانت هي الغالبة على بطل العمل، فكرة الكل في واحد والانتماء لها كان محور العمل، وكأن الرواية كانت تبحث عن الفرد الذي يحييها من جديد، وجاء الفرد وهو البطل الذي رفض الماضي في شخص والده وتمرد عليه، لأن والده يمثل اللامبالاة فلم يبال بهوية القبيلة، ولم يهتم بنفسه، فحاول الابن إثبات ذاته ووجوده ومن خلال إثبات الذات والوجود، هو في حد ذاته إثبات للذات والوجود للقبيلة، والتي كانت تمثل المجتمع، لذلك فإنني سأعمد من خلال حديثي عن أتشيبي إلى التأكيد على أن البطل الذي يبحثون عنه في الثقافة الأفريقية موجود في الأعمال الإبداعية خاصة الروائية منها، من خلال قراءة بعض تلك الأعمال الروائية للبحث عن الذات والهوية الثقافية الإفريقية والسؤال الذي يطرح نفسه أولاً هو ما الذي يجمع بين الدول الإفريقية بشكل عام؟. إن الذي يجمع بيننا هو المكان والتاريخ المشترك لمعظم دول القارة الإفريقية وكذا وحدة الزمان مع اختلاف التوجهات والثقافات المتعددة، وما يجمعنا أكثر مما يفرقنا.

يقول المستفرق الإنجليزي كلايف ويك :"ثمة حقيقة هامة لا بد أن نضعها في الذهن هنا وهي وحدة الحياة الثقافية الأفريقية الحديثة. إنها وحدة تكشف عن أن الثورة السياسية والاجتماعية هي التي ألهمت الأدب الأفريقي الحديث" ويقول الكاتب والروائي النيجيري تشينوا أتشيبي عن وظيفة الكاتب في أفريقيا المعاصرة:" من الواضح لي أن الكاتب الأفريقي المبدع الذي يحاول تجنب القضايا الاجتماعية والسياسية في أفريقيا المعاصرة سينتهي إلى أن يكون غير ذي موضوع". ويقول الدكتور علي شلش إن نصوص الأدب الأفريقي شديدة القرب مما نكتبه في بلادنا وإنني لم أشعر بغربة وأنا أطالعها". أي أن هناك ارتباطاً بين الجميع، حتى وإن تعددت ثقافات القارة الأفريقية ما بين ثقافة البلد والارتباط بالهوية وبين ثقافة المستعمر الذي فرضها على أهل البلاد من خلال نشر لغته وأيضاً ثقافة القبيلة.

الأدب منذ أرسطو وحتى الآن ما هو إلا تعبير عن الحياة أو محاكاة لها، والرواية جزء من الأدب المعبر عن حياة الإنسان، والأديب أو الروائي هو لسان حال قومه كما كان لدى الشاعر في عصور الأدب الأولى، ومن ثم فإن كل مكان أو كل بلد من البلدان له ثقافته التي قد ترتبط، أو لا ترتبط، ببلد آخر يجمع بينهما التاريخ المشترك والأرض والزمان والأحداث الاجتماعية الخارجية والداخلية أي أن هناك مظلة كبرى تجمع تحتها ثقافات عديدة. والقارة الأفريقية هي الأخرى مرتبطة معا برباط المكان والزمان حتى في طمع المستعمرين والثورات ضد هذا المستعمر.

ولماذا كانت أفريقيا مطمعاً للغزاة والانتهازيين والمستعمرين؟ لأن أفريقيا تتمتع بثروات ندر وجودها في مكان آخر. ومن ثم جاء الأدب ليعبر عن الحالة التي تعيشها البلاد. فهذا هو الكاتب النيجيري تشنوا أتشيبي في رائعته "الأشياء تتداعى " والذي عبر عن ذاته وذوات كثيرين في بلده من خلال هذا العمل. يقول الباحث أ.ر. داثورني:" الرواية هي الشكل الفني الأدبي الوحيد الذي دخل عن طريق الاستعارة الخالصة، وفُرض ـ فوق هذا ـ على تطور النموذج المحلي. فالدراما والشعر من جهة أخرى كانا جزءاً من التراث الأفريقي وكانا يؤديان وظيفتيهما داخل التقاليد الشفاهية ويساهمان في المناسبات الشعائرية والاحتفالية"[1].

إنَّ رواية "الأشياء تتداعى" هي رواية البحث عن الذات في شخص البطل الذي رفض سوءات الماضي وتمسك بقيم القبيلة؛ حيث عبرت الرواية عن الذات وكيفية المحافظة على التقاليد المختلفة لها وثقافتها وهويتها، فنجد أتشيبي يرسم ملامح الحياة في بلده في حقبة تاريخية سيطر فيها المستعمر الإنجليزي عليها وأراد لبلده الخلاص منه، كما عبر عن ذلك في هذه الرواية. وقد صور فيها حياة المزارع أوكونكو الباحث عن نفسه المفتقدة وهويته الضائعة بفعل الاستعمار الذي كان قاسماً مشتركاً للقارة الأفريقية، وبفعل والده والإرث الثقيل الذي وقع على كتفيه. ظل يبحث عن هويته وحريته وفي النهاية علم أنه لن يجدهما إلا بعد الخلاص من ذلك الاستعباد، وتأكد له في النهاية أيضاً أنه لن يجد الحرية الحقيقية إلا في العالم الآخر فشنق نفسه ومات، أي أنه عاش طوال عمره للبحث عن التغيير، ولكن المجتمع كان يأبى ذلك. وتناولت الرواية كذلك التعقيدات والتناقضات التي ظهرت بعد وصول البعثات التبشيرية إلى قرية أموفيا. وتناولت بصورة قوية الصراع الثقافي بين القبائل وخاصة قبيلة الأغبو والعقيدة المسيحية وهنا يدخل الدين في هوية الإنسان وثقافته . وتمتلئ الرواية بالحكايات القديمة التي يسردها الكاتب، فقد كان يعشق تلك الحكايات منذ الصغر. وقد نقل وقائع الحياة في أفريقيا وما كان يعتريها من قلق وعنف وخرافات إلى العالم من خلال الرواية. وبالتالي فقد ظل البطل في صراع مع الحياة والقدر وهو الحادث في عموم أفريقيا، وقد أطلق على الاستعمار عبارة الغزو، ذلك الغزو الذي مثل لديه الظلام والليل كما عبر عن ذلك من قبل أبو القاسم الشابي.

[1] د. علي شلش، الأدب الأفريقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 171 مارس 1993، الكويت ص 141

- **حياة البطل أوكونكوو**

تبدأ الرواية ببحث البطل أوكونكو عن ذاته وكيانه حين تغلب على بطل المصارعة أمالينز الذي لم يستطع أحد أن يقهره من قبل، فنال شهرة واسعة حين طرحه أرضاً، وكانت المرة الأولى التي يطرح فيها هذا المصارع أرضاً وعلى إثر ذلك نال البطل شهرة عالية بين القرى التسع المحيطة به." فحين كان شاباً في الثامنة عشرة، حاز لقريته على شرف عظيم بتغلبه على الهرّ أمالينز. وكان أمالينز المصارع العظيم الذي لم يقهره أحد من أومووفيا إلى مباينو طيلة سبع سنوات "[1] وقد لا يكون أوكونكوو في أعماق ذاته رجلاً قاسياً لكن الخوف من المجهول كان يسيطر على حياته بأكملها. الخوف من الفشل والضياع وقد كانت ثقافته هي ثقافة القبيلة.الكل في واحد. والهوية لديه هي هوية الجماعة وأن الكل أيضاً في واحد؛ حيث تشكلت تلك الهوية من خلال ذلك المجتمع، مجتمع أوموفيا تلك القبيلة التي كانت قد تكونت من تسع قرى متجاورة وسيطرت عليه عاطفة واحدة هي عاطفة كراهية كل ما أحبه أبوه أونوكان وأرادوا جميعاً أن تكون هناك حياة خاصة يمثلها بطل يقودهم إلى الخير الدائم وكان ذلك دافعاً إلى أن أصبح البطل مسؤولاً عن الجميع بعد أن كان يعمل أجيراً عند الناس. فقد كان يعمل في حقولهم وأراضيهم وكان لا يطيق سماع سيرة والده الذي لم يورثه شيئاً سوى الفقر والسيرة غير الحسنة، فبدأ البطل يبحث في نفسه عن قوة تستطيع حماية القبيلة وحماية من يلوذ بها وقد وجد في نفسه ذلك وأيضاً كان باحثاً عن بطل أكبر يخلصهم من المستعمر فناشد الفضيلة في وطنه حيث رأى فيه أنه القادر على فعل ذلك، وأنه القادر أن تجتمع تحته تلك الاختلافات.

وكان تغلبه أيضاً على والده الكسول المديون دائماً فيه نوع من إثبات الذات، فقد كان والده عازفاً على الناي المرتبط دائماً بالصوت الحزين، وقد أحب والده من قبل الارتحال والموسيقى وعاش حياة لهو طويلة لم يبال فيها بأبنائه وأسرته. فأصبحت هذه الرواية هي شهادة عن التجربة الأفريقية يكتبها نيجيري. عاش التجربة من الداخل وحاول أن يجعل من هذا العمل الضخم رؤية جديدة للمجتمع والحياة فهو أحد أقطاب قبيلة أموفيا، تلك القبيلة الكبيرة التي تجمع بين طياتها قرى عديدة، وكيف أن القرية في هذه المناطق لها عاداتها وتقاليدها التي استمرت معها كثيراً، أهم تلك العادات كانت في الترابط والوحدة ومعاداة القادم من الخارج غازياً..

[1] **تشنوا أتشيبي، الأشياء تتداعى، ترجمة سمير عزت نصار،الأهلية للنشر والتوزيع الأردن، 2002، ص 7**

لم يختر أتشيبي عنواناً فيه نوع من الإصلاح المجتمعي أو حتى تغيير المجتمع كما حدث في الرواية ولكنه كان دقيقاً في اختيار ذلك العنوان، لأنه يقدم رثاء لعالم أجداده والذي ذهب إلى اللاشيء بعد أن كانت منظومة ثقافية لها أركانها؛ حيث جاءت الحملات التبشيرية إليه فعبر عن ذلك بلفظة " أشياء " وهي نكرة للشمول بمعنى أي أشياء قديمة أصبحت تتداعى أمامه الآن، فقد اتهم بني جنسه بالتقصير في بلدانهم وأماكنهم في مواجهة الاستعمار ماديا وثقافياً، وكان باحثاً عمن يأخذ بيده لتخليص البلاد من ذلك الظلم الواقع عليهم من قبل المستعمر الذي أحل ثروات البلاد له ولأقرانه وحاول الكاتب في ذلك العمل أن يحث الهمم ويستنهضها على الوقوف في وجه ذلك المستعمر للخلاص منه وهو من ظهر بجلاء في عمله الرائع يقول:" ثم بغتة وقع ظل على العالم، واختبأت الشمس خلف سحابة كثيفة. رفع أوكونكو بصره إلى أعلى وتعجب ما إذا كان المطر سيسقط في مثل هذا الوقت غير المألوف من السنة. وعلى التو تقريباً دوت صرخة فرح من جميع الجهات ودب النشاط والحياة في أموفيا التي كانت تغفو في حر الظهيرة "[1]. وفي رؤيته للمطر كانت رؤيته للخلاص بأن هناك من سيأتي يغير الأرض فمع وجود المطر ستثمر الأرض وتخرج خيراتها وهو بالضبط ما سيحدث مع القادم الذي سوف يغير من الأمر شيئاً حتى يعيشوا في أمان ورغد رغم وجود بعض الاختلافات في الثقافة والدين وبعض العادات.

تناول أتشيبي ثقافتين متصارعتين في هذا العمل الأولى : ثقافة القبيلة المرتبطة بالأرض بالمكان بالإرث الثقافي من ملبس ومأكل وعادات وتقاليد والعشق للمكان وهو ما ظهر من خلال بنائه عدة أكواخ ليعيش فيها هو وزوجاته، ثم حديثه عن الأجداد وثقافاتهم واعتقادهم بالأرواح وأن الوحي يستدعي أرواح الأقارب من الآباء والأمهات. ولماذا جاء بتلك الأمثال والحكم؟. أتى بها ليس رغبة منه في إبراز المقولات المأثورة لدى أفراد قبيلته أوموفيا ولكن لكي يبرز مدى ارتباط أبناء هذه القبيلة بثقافة أجدادهم أمام ثقافة الرجل الأبيض والذي تسلل عبر حركة التبشير وبالتالي كان محافظاً على تلك الثقافة، ثقافة القبيلة. أما الثقافة الثانية: هي ثقافة المحتل الغازي الذي وصل بقوته وجبروته وجنوده إلى كبرى المدن هناك وأرسل مبشرين وبعض الأساقفة ليخلصوا الناس وهذه الشعوب من عبادة الأوثان وبالتالي لا بد وأن نطرح سؤالاً وهو ما أهمية الدين في حياة البشر؟ لقد كانت الثقافة الأفريقية أكثر تسامحاً من الثقافة الغربية الغازية، لأنَّ الثقافة الغربية أبادت قبيلة كاملة لقتلها أحد المبشرين بالخطأ، ومن هنا كان الغيظ والحنق

[1] شينوا أتشيبي، الأشياء تتداعى، ص 89

من أولئك الذين استعمروا البلاد شرقاً وغرباً فكتب الأدباء عنهم للتوعية وإعلام الناس ما حل بهم ووجوب البحث عن بطل يخلصهم من الذل والتبعية، لكي يحافظوا على الهوية والكيان.

وفي نهاية الأمر نرى البطل أوكونكوو وقبيلته ينتصران من خلال تبيان أن هؤلاء البشر الذين هو منهم يعلنون ويترفعون عن الحرب من أجل ما حدث بينهما؛ حيث يرفضون الدخول في صراع دموي يسعى إليه الرجل الأبيض القادم إلى البلاد غازياً، وهنا نقطة جوهرية وهي إعلاء شأن القيمة التي يبحثون عنها تلك القيمة الكائنة في الإنسان نفسه وقيمه ومعتقداته والحرص كل الحرص على عدم الاستهانة بكون ذلك إنساناً، وكان العزف على هذه الجزئية من الكاتب للتأكيد على الوحدة والترابط وهما النابعان من حب المكان؛ لأن المكان يمثل له هويته وكيانه، حتى ولو لوث هذا المكان القادم من هناك من أجل غزو هذه البلاد وهو قد يكون على دين آخر. وهنا أيضاً نقطة محورية وهي قبول الآخر الذي يختلف معه في أي توجه، ولكن القادم من الغرب يريد فرض إرادته "بالطبع ثمة فارق أساسي بين الأفكار الدينية، والوضعية؛ فالدين ظاهرة إنسانية كبرى تتوزع على مستويين: أولي يتمثل في خبرة الاتصال العاطفي مع المبدأ الإلهي/ القدسي، حيث لا يمكن الحديث عن تاريخية الفكرة الدينية.. وثانوي تُجسد فيه هذه الخبرة وتنظيمها في طقوس وشعائر"[1]

وتظهر ثقافة القبيلة في إبراز قوة قبيلة البطل وهو ما يظهر في حادثة مقتل زوجة أحد رجال قرية أوموفيا من قبل آخرين في قبيلة مباينو حيث ظهرت قوة قبيلة أوموفيا. فقد نادى المنادي على جميع رجال قبيلة أوموفيا بأن يجتمعوا في صبيحة اليوم التالي وشعر وقتها بأن في صوته نبرة حزن، وهو ما تكشف بعد ذلك حين علم في اليوم التالي بالكارثة، فأرادوا أن يثأروا لتلك السيدة التي قتلت. فخشيت القبائل الأخرى على نفسها من قوة قبيلة أوموفيا يقول الخطيب المفوه أوجبويفي إيزيوجو " أوموفيا كينو" فصاح الجميع مجيباً. ثم فجأة كرجل أصابه مس أطلق يده اليسرى مشيراً في اتجاه مباينو، وقال من خلال أسنان لا معة مطبقة بإحكام:" أبناء الوحوش الكاسرة أولئك تجرؤوا على قتل بنت من أوموفيا" "[2]. فأرسلوا إلى تلك القبيلة إما الحرب أو تقديم صبي وعذراء كتعويض عما حدث. فما كان من تلك القبيلة الباغية إلا أن قدمت لقبيلة أومووفيا الصبي والعذراء يقول الكاتب: "أومووفيا مرهوبة الجانب من جميع جيرانها. إنها قوية في الحرب

[1] صلاح سالم، التعددية الثقافية وحوار الحضارات، مرجع سابق ص13

[2] تشنوا أتشيبي، الأشياء تتداعى، ص16

والسحر وكهنتها ورجال الطب فيها مرهوبو الجانب في جميع البلاد المحيطة"[1]. فثقافة القبيلة في قوتها وقيمتها. وقد ذهب أوكونكوو إلى قبيلة مباينو أعطوه مباشرة الصبي والعذراء. وهم بذلك يؤصلون مبدأ القوي الذي يحرص على كرامته فبعد أن قتلوا تلك الفتاة أرادت قبيلة القتيلة الثأر ممن فعلها فخشيت القبائل الأخرى منها فقدمت لها ما أرادت وهنا نرى إثبات الذات من أجل الفضيلة والقيمة أو الصراع من أجل البطل، لأن البطل هنا يتمثل في القيمة الحقيقية التي يبحثون عنها، وهي إثبات وجودهم، وما ينطبق هنا على القبيلة ينطبق أيضاً على البلد بأكملها، فما تلك السيدة التي قتلت إلا رمز ، يرمز لانتهاك حقوق البشر من الغازي، وكان وقوف قبيلتها من أجل الثأر من القتلة هو بالضبط إشارة ورمز للوقوف في وجه المستعمر الذي أخذ الأرض وانتهك العرض، وهنا يأتي دور الأدب للتأكيد على الوحدة من خلال التضامن للوقوف في وجه الغازي أيا كان ذلك الغازي، سواء أكان بالرمز أو بالحقيقة، وإذا كان الكاتب عبر بالرمز، فهو يشير ويرمز إلى المستعمر أيا كان. وهنا نرى ما طرحه الكاتب من تناول السارد الخارق أو الإله للقيمة؛ حيث يطلق عليه السارد الإله لما لديه من قدرة خارقة على المعرفة بأحوال الشخصيات النفسية والاجتماعية، دواخلهم وأفعالهم وسلوكياتهم الخارجية، بل ولا يكتفي بمجال المعرفة، إذ ينحاز إلى موقف أيديولوجي، ويعبر عن موقفه، ويطلق أحكام القيمة على شخصياته في تعليقاته ما يسميه جيرار جينيت بالخطاب المؤلفي أو السلطوي المستعار من نقاد اللغة الألمان"[2].

وعن المستعمر أيضاً فقد كتب دافيد ديوب الفرنسي من أصل سنغالي روايته المؤلمة "شقيق الروح" ليتناول فيها قصة معاناة السنغاليين في الحرب العالمية الثانية، ويقر فيها بفضل الأفارقة على الفرنسيين، وفي الوقت نفسه يؤكد على تلك المعاناة التي عاناها قومه في الدفاع عن مستعمرات الفرنسيين، وهو ما خلق حالة من الألم لديهم فقد فُقد من السنغاليين آلاف عديدة، وتأتي هذه الرواية من أجل مخاطبة الفرنسيين والتأكيد على أن القارة الأفريقية تحملت عناء الاستعمار لعصور طويلة. يتناول في الرواية صديقين فرقهما الموت بطريقة مؤلمة، فقد كانا معاً من أجل الدفاع عن المستعمرات الفرنسية، وقد أصيب أحد الصديقين وهو ماديمبا وأراد من صديقه أن يجهز عليه ويقتله لأنه أصبح عالة علية وحتى لا يتألم أكثر من ذلك، فيعلم وهو في هذه الحالة أن صديقه لن يقدر على تحمله وهو مصاب بهذه الإصابة الخطيرة، ولكن

[1] المرجع السابق ص 16

[2] محمود أحمد عبدالله، المواطنة في الرواية المصرية، مرجع سابقث ص 153

صديقه ألفا ندياي رفض أن يفعل ذلك رغم أن أمعاء صديقه قد خرجت من بطنه، يقول الكاتب: "بحق الله وحق عرافنا الأكبر، إن كنت أخي يا ألفا، إن كنت حقاً كما أحسب، اذبحني كما يذبح خروف الأضحى، لا تترك خطم الموت يلتهم جسدي! لا تتركني لكل هذه القذارة، ألفا ندياي.. ألفا أرجوك اذبحني"[1]. وعلى الرغم أن المؤلف وهو أستاذ في جامعة بو جنوبي فرنسا إلا أنه ظل على ارتباطه بالثقافة الأفريقية رغم هضمه للثقافة الفرنسية بفعل الاستعمار، أي أن ثقافة الآخر لم تغير منه شيئاً وقد عاش مع هذا الآخر في بلده رحلة حياته، وكان صوت المهاجرين الأفارقة ضد العنصرية والقهر يدعو إلى العيش جنباً إلى جنب مع الآخر، فقد عارض كثيراً إريك زيمور العنصري، الذي كان يمقت الأفارقة وإريك هذا لا يعترف بشيء اسمه التعددية الثقافية فلا يعرف إلا نفسه فقط. هو لا يعلم أن التعدد الثقافي قد يكون مكملاً للجميع وليس مفرقاً بشرط نزع العنصرية واحترام الشعوب المقهورة وعدم استغلالها، وهذا ما عزف عليه كثيراً دافيد ديوب في رواية أخرى له حملت عنوان "قِبلة الألعاب العالمية"، والتي يتناول فيها موقف الغرب من أفريقيا ومدى تحكم العنصرية لدى هؤلاء الأوربيين، ولكنه روايته "شقيق الروح" كانت "مسعى إلى التكفير عن هذا الخذلان للصداقة، وتوثيق للكيفية التي تشق بها هذه الصدمة طريقها في ثنايا العقل. يقول ألفا: "لو أنني كنت في ذلك الوقت ما أصبحت عليه اليوم، لكنت قتلته عند المرة الأولى التي طلب فيها ذلك، ورأسه متجه نحوي ويده اليسرى في يمناي."[2]. لقد أصيب بهوس القتل بعد أن رأى صديقه في هذه الحالة، علم أن هناك من يستغلهم لمصلحته الخاصة، ما الذي تغير عند صديقه، إنه علم بمدى وضاعة المستعمر وأنهم لا يُلقون بالاً على الإطلاق بتابعيهم فهؤلاء التابعون فقط من أجل خدمتهم، وهو ما وضح له من خلال النقيب وحكايته معه. بالفعل في هذا العمل يذكِّر دافيد ديوب الناس بما تعرضت له القارة السمراء من استنزاف على مدى تاريخها. لقد كانت الرواية "قاسية وشاعرية في الوقت نفسه تجمع بين جحيم حقل

[1] أبو بكر العبادي، شقيق الروح، رواية سنغالية كتبت بالدمع والوحل والدم، ميدل إيست أون لاين، الأربعاء 7/11/ 2018

[22] جيسي جيزيفسكا، في الخنادق مع المستعمر، ترجمة علاء الدين أبو زينة عن فورين بولس، 21/ 11/ 2020م

المعركة الدامي وليالي أفريقيا الواعدة في قراها النائية"[1]. وتظل الحسرة على الجميع بسبب ما تعرض له شباب القارة الأفريقية وخاصة في السنغال، من قتل بسبب الدفاع عن المستعمرات الفرنسية، والدفاع عن وطن ليس وطنه "حسرة على شباب لم تكتمل أحلامه راح ضحية أمجاد وطن ليس وطنه"[2]. وقد تحول بطل العمل إلى أسطورة في القتال خاصة بعد أن فقد اتزانه بسب مقتل صديقه أمام عينيه.

ومما تقدم يمكن لنا أن نخرج بعدد من النتائج

_ قد تقف العولمة في وجه التعددية الثقافية، خاصة بعد ذلك الانفتاح الكبير على العالم، واتجاه بعض الناس إلى التحدث بلغة الأقوى والتي لها أثر كبير على الاقتصاد العالمي، ولكن يبقى شيء هناك، وهو أن هؤلاء الناس لا يمكن لهم أن يتركوا لغاتهم الأم أو هوايتهم الأولى، وستظل تنازعهم، وهو ما ظهر مع كتاب جنوب القارة الأفريقية الذين هاجروا وتركوا بلادهم، فقد ظل معظمهم متمسكاً بتاريخ أمته حتى ولو ارتبط أيضاً بحضارة أخرى هي الحضارة الأوروبية. من هنا يمكن أن نقول يوجد صراع حضاري يتخطى الحدود حتى في ظل وجود النظام العالمي الجديد المرتبط بالعولمة. وقد كان للرواية دور في تسليط الضوء على هذه الجزئية.

الهوية ترتبط كلياً باللغة والثقافة، فمن يتحدث الإنجليزية بالتأكيد سيكون مطلعاً على الآداب الإنجليزية، وله علاقة وثيقة مع أهل هذه اللغة من ناحية معرفة العادات والتقاليد الخاصة بهم حتى ولو لم يعش في بلادهم كما هو الحادث في أفريقيا، وتتنازعة هويته الأم وهي الهوية الأفريقية المرتبطة باللغة الأم والتاريخ وما نتج عن ذلك من ارتباط حتمي بالقبيلة التي ينتمي إليها الأمر الذي لمسناه عند وول سوينكا وتشنوا أتشيبي النيجيريين.

- الدفاع عن الهوية انحصر معظمه في الثقافة، وكان الأدب أكبر دليل على ذلك خاصة في الرواية، فاشتغل المثقفون في القارة الأفريقية عليها لأنها أصبحت الطريق للخلاص من المستعمر؛ سواء أكان الخارجي الأجنبي أو الداخلي التابع له.

[1] دافيد أيوب، شقيق الروح، دار الفارابي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2019 الغلاف الخلفي

[2] المرجع السابق نفسه الصفحة نفسها.

- كانت الرواية هي المناهض الأول للاستعمار ، فأبدع الكتاب في رصد ما يقوم به المستعمر من طمس للهوية، كما أبدع في إظهار الخونة الذين مالوا إلى تلك المعتقدات الخاصة بالمستعمر على حساب أبناء بني جلدتهم، كما رأينا ذلك عند سوينكا في "المفسرون" و"موسم الفوضى". ولكن في الوقت نفسه أكد سوينكا على التعدد الثقافي وقبول الآخر طالما أن الآخر يقدم احترامه له، ليعيش الجميع تحت مظلة كبرى هي الوطن.

– التحرر من التبعية الثقافية التي صنعها الاستعمار ظهرت بجلاء في أدب القارة الأفريقية خاصة بعد فترة الخمسينيات، وكانت موجة كبرى اجتاحت الأدباء ليبذلوا جهدا كبيراً لإثبات الذات والتأكيد على أن أفريقيا فيها أدب يدافع عن كيانها وهويتها التي غيرهما المستعمر، ومنهم من ناضل من أجل الهوية الأفريقية مثل تشنوا أتشيبيه وسوينكا وعثمان سوسيه، مع تقديرهم للتعددية الثقافية.

– أدب القارة الأفريقية كتب بأكثر من لغة منها اللغات التي جاءت إليه من الخارج مثل الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية والإيطالية، ومنه ما كتب باللغات المحلية مثل اللغة السواحلية، وكان نتيجة ذلك أن تعددت الهويات منها ما ارتبط بالهوية الفرنسية ومنها ما ارتبط بالإنجليزية وهناك من ارتبط بالهوية الأفريقية، خاصة تلك الآداب التي كتبت باللغة المحلية والتي كان للتبشير دور فيها أي ارتبطت الكتابة بالدين، ومن ثم فقد تعددت الثقافات؛ فهناك ثقافة القبيلة وثقافة البلد وثقافة المستعمر، وثقافة من تأثر بالمستعمر فهاجر إلى بلادهم كما فعل دافيد ديوب صاحب رواية "شقيق الروح" والتي كتبت بمداد الألم.

– تدور الرواية الأفريقية في فلك الملاحم كما رأينا عند تشنوا أتشيبي، مع إسباغ صفة الأساطير عليها وأيضاً رأينا ذلك عند سوينكا في أعماله المختلفة، وهذا يؤكد شيئاً مهما وهو أن الحكي الشفاهي كان له دوره في ثقافة الكاتب وفي تضاريسه النصية وقد ذكرت ذلك في كتاب لي حول هذه الجزئية، فهم كانوا يستمعون من الآباء والأجداد للحكايات العجائبية والفلكلور الأفريقي القديم، والذي ترك أثراً في نفوس الكتاب الأفارقة، وظلت تلك الأساطير مع الكتاب حتى وقتنا الحاضر، ومنهم من استقى مادته الروائية منها.

– أفريقيا وخاصة جنوبها تمثل عمقاً استراتيجيا للثقافة العربية في الشمال، يربط بيننا التاريخ المشترك الواحد في المكان والزمان، وعلينا أن نعيد النظر في قراءة الأدب الأفريقي.

المصادر والمراجع

المصادر:

1. تشنوا أتشيبي، الأشياء تتداعى، ترجمة سمير عزت نصار،الأهلية للنشر والتوزيع الأردن، 2002.
2. وول سوينكا، المفسرون، ترجمةسعدى يوسف، دار المدى للثقافة والنشر، المجمع الثقافي أبو ظبي، الطبعة الأولى 1998.
3. وول سوينكا، مات الرجل، ترجمة راتب شعبو، دار التكوين، دمشق/ بيروت 2015.
4. وول سوينكا، موسم الفوضى، زيد بن ثابت، دار التكوين ترجمة عبدالكريم ناصف، 1987

المراجع:

1- أبو بكر العبادي، شقيق الروح، رواية سنغالية كتبت بالدمع والوحل والدم، ميدل إيست أون لاين، الأربعاء 7/11/ 2018.

2- أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2013.

3- جيسي جيزيفسكا، في الخنادق مع المستعمر، ترجمة علاء الدين أبو زينة عن فورين بولس، 21/ 11/ 2020م

4- حسن المودن، الأدب والتحليل النفسي، كتاب الدوحة، مع مجلة الدوحة العدد 142 أغسطس2019.

5- الزواوي بغورة، التعدد الثقافي مفهومه ونظريته من خلال نموذج ويل كيمليكا، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، العدد 2 المجلد44 أكتوبر ديسمبر 2015.

6- دافيد أيوب، شقيق الروح، دار الفارابي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2019.

7- سيد البحراوي، علم اجتماع الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1992.

8- صلاح سالم، التعددية الثقافية وحوار الحضارات والحوار العابر، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 3 المجلد 44 يناير مارس 2016.

9- عبير الفقي، إصلاح الخدمة العامة في أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2020.

10- علي شلش، الأدب الأفريقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، العدد 171 مارس 1993،.

11- محمد نافع العشيري، مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 4 المجلد 43 أبريل يونيو 2015 .

12- محمد نافع العشيري، مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 4 المجلد 43 أبريل يونيو 2015.

13- محمود أحمد عبدالله، المواطنة في الرواية المصيرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة القاهرة 2016

14- Michael Lister and Emily pia,Citizenship in contemporary EUOPE,Edinburgh University press,2008,pp.18-22